٢ ـ فى بلاد الأحرار

للكاتب التركى الأستاذ أغا أغلو أحمد

بقلم الأستاذ أحمد مصطفى الخطيب

عكفت على مطالعة السفر فى الحال ، وكانت صفحته الأولى تحمل هذا العنوان : « القواعد الأساسية لبلاد الأحرار »

وعندما قلبت الصفحة الأولى منه وقعت نظرتى على هـذا العنوان : « الأسـس العامة »

ثم تلا ذلك هذه المواد :

(١) الحرية منحة سامية . . . ولـكيما يـكون المرء حرا ، يجب أن يحوز منزلة كبيرة من السمو والرفعة . . . نزاهة الفـكر .. نزاهة القول . . . نزاهة الحركة . . . تلك هى الأسـس اللازمة للحرية

(٢) لا يستطيع نيـل الحرية أولئك الذين لا يتمكنون من التحكم فى نفوسهم

(٣) سذاجة القول . . . سذاجة المعيشة هما شرطا الحرية..

وبعد أن قرأت هذه المواد التى بدت لى غريبة جـدا لفت نظرى هذا العنوان : « القانون الأساسى لبلاد الأحرار »

كان هذا القانون يتضمن المواد التالية :

(١) الحرية تقوم على الصدق والجرأة

(٢) الـكذب ممنوع منعاً باتا فى بـلاد الأحرار ومن يبتل بهذا الداء يطرد من البلاد

(٣) الرياء والتزلف يعدان من أكبر الجرائم ، ومرتـكبها يرجم بالأحجار أفراد هذا الشعب كافة

(٤) لا يجوز للجواسيس أن ينتسبوا إلى رعوية « بـلاد الأحرار »

(٥) لا يجتمع الجبن وتوطن بلاد الأحرار على صعيد واحد

(٦) إن من يعتدى على غيره قولا أو عمـلا يقذف به إلى خارج البلاد

(٧) الاحتيال والنميمة يورثان مرتـكبهما عقوبة إسقاط رعوية بلاد الأحرار عنه

(٨) الدفاع عن الحق واجب ... ومن لم يقم بهذا الواجب يطرد من البلاد

(٩) العمل واجب . . . ومن تحدثه نفسه بالبقاء بغير عمل يستكره على العمل لحساب البلاد بغير أجر

(١٠) التساند واجب . . . والذين لا يقومون بتأدية هـذا الواجب يفقدون رعوية البلاد

(١١) إن القيام بإدارة شؤون بلاد الأحرار لهو من حق ذوى التجارب والاختصاص فحسب

(١٢) إن كل وطنى مكلف بأن يراقب موظفى البلاد

(١٣) على كل موظف أو فرد فى المملكة أن يؤدى الحساب فى أى وقت كان ، عن أعماله التى يقوم بهـــا ، أو ثروته التى يمتلكها ... والذين يحاولون الهرب من تأدية مثل هذا الحساب يحكم عليهم بعقوبات قاسية ويفقدون صفة الاستيطان

(١٤) على كل وطنى استظهار المواد المدرجة فى أعلاه والعمل بمقتضاها

* * *

قرأت هذه المواد ، ثم أخذت أفكر.. ما أعجب هذه البلاد ؟ إنها نقيض ما رأيته أو سمعته أو تعلمته حتى الآن

ليت شعرى ! هل أستطيع إلفة هذه الحياة الجديدة ؟ داخلتنى الشكوك وساورنى الإحجام ... حتى خيل إلى لحظة وأنا فى غمرة تفكير عميق أن من الأفضل أن أهرب من هـذا المكان . . . ولـكن غرورى وكبرياء نفسى قد حالا بينى وبين ذلك

وقد قلت لنفسى :

— « . . إذ قد أتيت .. وطلبت أن أكون « مواطناً » فى بلاد الأحرار فالعمل فى سبيل التعلم قضية كرامة شخصية ليس إلا ..نعم ! أنا أعرف أن لى عادات كثيرة ، وسجايا اكتسبتها من جدودى وعهود التاريخ ، وإنه من الصعوبة بمكان . . . على أن

أفارقها وأنبذها نبذ النواة دفعة واحدة . . . ولـكن مهما يـكن من شيء فالواجب يقضي علي بالعمل وبذل كل الجهود المستطاعة »

وهـكذا صممت على تعلم الدستور ، فأقبلت عليـه بالدرس والبحث والتأمل . . . ولم تمر غير أيام معدودات حتى كنت في خلالها قد تمـكنت من استظهار مواده وفهم مغازيها ... على أنه كانت ثمـة أيضاً بعض المواد لم أفهم الحـكمة من وضعها ، وأخرى داخلني الشك والارتياب فيها . . . فـلذا صممت على مكاشفة الأساتذة بالأمر ، وطلب الشرح الوافي منهم

وبعد كل هـذا أخذت أتفرس ما حولي ، وأتفحص الدار التي أسكنها ، وأدرس الرجال الذين أتصل بهم

إن ما رأيته يحيط بي قـد بعث في نفسي من الحيرة والدهش أضعاف ما بعثه فيها ما كنت قد قرأته من المواد والنصوص

فقد علمت أن الدار التي أسكنها دار ضيافة ، وأن هناك عدة دور أخرى مماثلة لها في المدينة خاصة بالذين يلجأون إلى بلاد الأحرار

وكان معي في الدار ضيوف آخرون يبلغ تعدادهم عشرين ضيفاً بينهم نسوة

وفي اليوم التالي أفضى بي الشيخ الذي فتح لي الباب إلى قاعة الطعام العمومية ، ثم قدمني إلى الضيوف الذين كانوا قد اجتمعوا هناك ؛ قائلا :

— ضيف جديد !

رحب بي القوم جميعاً بوجوه تطفح بشراً وإيناساً ، ونظرات تفيض رقة وحناناً ، ثم قال الجميع بصوت واحد :

— هنيئا لك ! . .

كان الطعام وافراً ساذجا . . وبعد انتهائنا من تناوله ، انتقلنا إلى البهو ، وهنا جلست إحدى السيدات إلى المعزف ، وأخذت توقع ألحانا مؤثرة

نهض الضيوف جميعا ، وأخذوا ينشدون بصوت واحد نشيدا أشبه شيء بالدعاء... فنفذ لحن هـــذا النشيد إلى شغاف قلبي ، وشعرت شعورا غامضا لا سبيل لي إلى الإفصاح عنه

وهنا خاطبني الشيخ قائلا :

— يجب أن تحفظ هذا النشيد !

ثم ناولني ورقة مكتوبة فإذا أنا أقرأ فيها :

« ما أصعب أن يكون المرء حرا »

* * *

لست بمتذكر نفس الأقوال التي كانت قد وردت في ذلك النشيد ، ولـكنني أستطيع أن أقـــول إن خلاصتها كانت لا تعدو ما يلي :

« الإنسان شعور الـكون »

« نعبده ونقدسه »

« الحرية جوهر الشعور المقدس »

« نحبها ولا نتخلى عنها »

« بلاد الأحرار هيكل الشعور والحرية »

« نلجأ إليها ونعتز بها »

إنه ليس بوسعي أن أصف لكم مبلغ ما أحدثه هذا النشيد من الأثر البالغ في نفسي . . . فقـد أصغت صوابي لعـدة دقائق.. . وعندما عاد إلى رشدي وجدت الضيوف قد انقسموا إلى جماعات والـكل يتحدثون

جاءني جماعة منهم وأخذوا يجاذبونني أطراف الحديث كما لو كانوا من معارفي منذ مدة طويلة... فعلمت أن هؤلاء أيضا مثلي قدموا هذه الديار عند بحثهم عن الحرية

وبعدهنيهة أخذت أطوف الأقسام الأخرى أيضا من البناية.. كانت الغرف والقاعات قد فرشت بفرش ساذجة ، ولـكنها تلمع من شدة النظافة .. والجدران مزدانة بعدد كبير من الصور الفنية الغالية والألواح النفيسة

وعلى معظم هـذه الألواح دونت مواد دستور بلاد الأحرار بخط رائع جذاب . . . كانت ثمـة كتابات أخرى أيضا لفت نظري منها

« الحريص يـكتوي بنار حرصه ويحرق ما حوله »

« الـكلام أول صوت إلهي شعر به الـكون »

« الاستبداد معرة متوارثة من عهود الهمجية »

« العدل ميزة تثير غبطة الملائـكة للانسان »

« التضحية من أسمى مظاهر النفس البشرية »

« نـكران الذات والتواضع خلتان يختص بهما ذوو الأرواح